



افواس ضمت  
اعمدة في لبدة  
أو لبيدة، ليبيا  
(ويكيبيديا)

وبالضبط في بلدان المغرب العربي، كانت سجلا. ذلك أنه لم يتح لهذه المناطق أن تشكل دولها المستقرة إلا في محطات تاريخية محدودة، فسرعان ما كانت تهرع القوى الأوروبية في ذلك الوقت بسفنها وجيوشها لتفتت كل محاولة للوحدة، السياسية يمكن أن تحدث بين هذه الأقاليم الشاسعة.

### حلم «شمال أفريقي»

لقد كان الوعي الأوروبي قويا بمخاطر أي وحدة عليها، خصوصا أن حادثة الخروج من الأندلس ليست بعيدة، وما زال هناك حلم «شمال أفريقي» باستعادتها، أو العودة إليها، على أقل تقدير، فالآلاف من العائلات الأندلسية العربية واليهودية، تركت أملاكها هناك، وفرت عبر البحر، نحو المغرب والجزائر وتونس، وكان حلم العودة يراودها باعتبارها حلما مشروعا وحقا من الحقوق لا بديل عنه. ثاني الملاحظات، التي كونها هابنسترايت عن بلدان الشمال الأفريقي، أنه لديها هوية جامعة، حتى وإن كانت تبدو على مستوى الظاهر، متفرقة ومتشردمة، فهناك الهوية الدينية الموحدة المنمطة في الإسلام، من جهة، وهناك من جهة ثانية، الانتساب إلى الخلافة، والتي تجعل من الخليفة العثماني رمزا موحدًا لمملا لأمة الإسلام، مهما تباعدت درجات الخضوع للسلطان العثماني من بلد إلى آخر، ومهما كانت مستويات «خدمات الحماية» التي يقدمها الخليفة، شكلية أو حاسمة. الملاحظة الثالثة، أن حركة الجهاد البحري، الابتكار العربي، للرد على الهجمات الأوروبية، كانت تحظى بدعم مركزي، على مستوى السلطة العثمانية، وباحتضان شعبي، على مستوى انخراط النخب المغاربية وسلطها وقواها في هذه العملية، بمن فيهم «الوافدون الأندلسيون»، الذين ساندوا وشاركوا في كل العمليات التي جرت في البحر، ودعموها ماديا ومعنويا. أما الملاحظة الرابعة، التي سجلها هابنسترايت، فهي تصاعد الكراهية للأجانب، وخصوصا الإسبان والفرنسيين والإيطاليين، بعد أن تزايدت أطماع هؤلاء في بلدان المغرب العربي، وبالتالي أصبح «الجهاد» ضد أي أجنبي، فرض عين، تبدأ من المقاطعة إلى السلب إلى القتل، ولم ينح من هذا المصير، حتى أولئك الذين يمنحهم الولي، أو الباي أو الداي، «الأمان» بالتحرك بحرية في البلاد. وقد عاش هابنسترايت، نفسه حالات من هذا النوع، نجا منها بأعجوبة، أو جرى إنقاذه من تعقيباتها في آخر لحظة.

### الحضور الإيطالي

في الطريق البحري من تونس نحو طرابلس، يبدأ الحضور الإيطالي يكتسب قوة أكبر، فهناك الكثير من الجزر الصغيرة، التي كانت ساحة حرب ونزال بين العرب والإيطاليين، إن هذا الجزء من المتوسط، كان ساحة معركة مفتوحة على مر الأزمان، ولا تزال الشواهد حية وناطقة، في كل شبر من مياه هذه الجزر ومن مغاراتها. فعلى صخورها تحطمت أحلام جيوش وغزاة، قبل أن تبلغ اليابسة. يصل هابنسترايت إلى جزيرة لامبيدوزا، التي هي اليوم تحت السيادة الإيطالية. لقد كانت هذه الجزيرة، ملققة طرق للسفن العابرة، ترسو هناك، كي تترود بالماء وبما تحتاج إليه من زان، قبل أن تستأنف مسيرتها، يكتب هابنسترايت «وصلنا في 22 سبتمبر إلى جزيرة لامبيدوزا، التي اضطررنا إلى التوقف فيها بسبب تسرب الماء إلى سفينتنا. ولم تثننا هذه المغامرة عن رغبتنا في رؤية الأب كليمان، وهو راهب ظل يقيم في هذه الجزيرة لمدة أربع وعشرين سنة، ولم يحالفنا الحظ لرؤيته، فقد اغتتم مرور سفينة فرنسية لينتقل إلى نابولي، على أمل أن يعود يوما ما عندما تصادفه رياح ملائمة، وكان قد ترك بالجزيرة خادمه الذي سره أن يعرفنا على الدير».

### حكيم عنكر

لم تقف مغامرة الرحالة والطبيب الألماني هابنسترايت، عند الرحلة التي بدأها من الجزائر عام 1732 إلى تونس، بل إنه كان قد عقد العزم، على التوجه إلى ليبيا. وحتى وإن كانت الكثير من مشاريعه الرحلية قد توقفت أو إنها لم تتم لأسباب مختلفة، فإنه انجز الشق المتعلق بالوصول إلى طرابلس، وهي محطة صغيرة، لم تكن مدتها الزمنية كافية، لكي تتيح له تكوين فكرة شاملة ومفصلة عن هذه المنطقة الشاسعة من شمال أفريقيا. فلم يتمكن الرحلة هابنسترايت من التوغل في ليبيا، فبعد أن وصل إليها في أواخر سبتمبر من عام 1732، قادما عن طريق البحر من تونس، لم يحالفه الحظ في السفر إلى الصحراء الليبية، لأسباب تعود إلى سوء الإعداد لهذه الرحلة، والفشل في تنظيم قافلة كبيرة، قادرة على الذهاب أبعد من طرابلس، في رحلة، محفوفة بالكثير من المخاطر، بسبب عدم وجود الماء، علاوة على غياب التأمين الكافي للقافلة، مما دفعه في الأخير، إلى التراجع، عن القيام بهذه المغامرة، وسط تحذيرات السكان، وعدم حماسة المرافقين له.

### معاينة عن قرب

ولكنه مع ذلك، تمكن من معاينة المدن القريبة، والمواقع الأثرية المحيطة بطرابلس، كما أنه لقي حفاوة وترحيبا من طرف داي ليبيا/ حاكمها، الذي وصفه بأنه رجل على درجة عالية من التهذيب، كما أنه يتحدث الإيطالية بطلاقة وبلغة راقية جدا. وإن كان لم يتح له استكشاف البلد، فإنه على الرغم من ذلك، كون فكرة حول مقدار ما يزرخ به من إمكانيات وكنوز. بلد ينعته ببلد جبال الرمال المتحركة، التي ضاعت في بيئاتها الكثير من بوصلات الغزاة والطامعين فيها، منذ الزمن الروماني والبيزنطي إلى الآن. فما تزال شواهد ومدن تلك الحضارات القوية التي مرت عليها، مطبورة في بطون الرمال. غير أنه تمكن من تسجيل العديد من الملاحظات، وهي غنية للغاية، أولى هذه الملاحظات، أن الحياة في الشمال الأفريقي،

لم يتمكن الرحالة الألماني هابنسترايت من التوغل في ليبيا، فبعد أن وصل إلى طرابلس في أواخر سبتمبر من عام 1732، قادما عن طريق البحر من تونس، لم يحالفه الحظ في السفر إلى الصحراء الليبية

# ففي ليبيا

## مشاهدات هابنسترايت من لامبيدوزا إلى طرابلس

### الأب كليمان

يتحدث هابنسترايت بتفصيل عن دير لامبيدوزا، وعن الأب كليمان، الذي عمل على العناية به وتوسيعه، يقول «لاحظنا أن هذا الدير لا ينقصه أي شيء من متطلبات الحياة، بفعل العناية التي أولاهها له أحد الرهبان الإغريق، وبعد موت هذا الأخير عمل الأب كليمان، الإيطالي الأصل، على توسيع وتحسين عمارة الدير فأصبح يضم العديد من الغرف بالإضافة إلى الكنسية المنحوتة في مغارات طبيعية سمحت بإقامة الكنيسة داخل صخور الجبل. لقد كانت هذه الجزيرة فيما مضى مأهولة، ولكنها أصبحت مهجورة منذ حروب القرصان بربروسة مع الإمبراطور شرلكان، وظل البحارة المسلمون والمسيحيون، وخاصة الماطليين منهم القريبين منها يلتجئون إلى مرسى هذه الجزيرة ليحتموا من العواصف والتمزود بالماء والخبث، ومع مرور الوقت عمل الماطليون بدافع التقوى على جعل هذا المكان صالحا للتقوى.



### في وصف الجزيرة

يوجد بالمغارة التي بني عليها الدير رحي لطحن الحبوب تدار بواسطة حمار، كما تتوفر المغارة على فرن هبي لطهي الخبز. وغير بعيد عن الدير تشاهد مغارة أخرى حيث يوجد معلم مقدس عند المسلمين الذين يطلقون عليه اسم محمد، يأتيه بحارة السفن الأتراك للتبرك به وصنع الخبز، ويقدمون له بين الحين والأخر الزيت والشموع وكل أنواع المؤونة. وسفن النصارى هي بدورها تحمل إليه الخمر والمشروبات الروحية والملابس. يصف هابنسترايت جزيرة لامبيدوزا بأنها جزيرة مهمة، وعجيبة، يقول «لقد نجولنا في هذه الجزيرة الصغيرة التي لا يتجاوز طولها ثلاثة أميال، وتسلينا أثناء ذلك بصيد الأرناب، وقد اتفقنا مع قبطان السفينة أن نحضر لتناول العشاء معنا في الدير حيث نتواجد في ساعة محددة، ولكن عوض أن يلي دعوتنا للعشاء، أعلمنا بأن السفينة قد تهيأت للإقلاع، ولحسن الحظ أن القبطان المساعد والكاتب كانا معنا، وهذا ما جعلني مطمئنا ولم يساورني القلق من أن يقدم القبطان على تركنا وحيدين في هذه الجزيرة المعزولة، ومع ذلك، أطلق القبطان طلقة مدفع ورفع العلم يستحثنا على الالتحاق به، لكننا لم نتمكن من سماع إعلانه الأول ولا من رؤية إشارة الثانية، التي رأى ربان السفينة، بعدها، أنه لن ينتظرنا وقتا أطول، فأسرعنا نحو الميناء حيث أتى أحد القوارب لأخذنا إلى السفينة.

## الوصول إلى طرابلس

خدماته عن طريق مترجمه، ولكن قنصل فرنسا السيد رايموندي كانت له الكلمة الأخيرة في هذا التسابق على الضيافة، فأنزلنا في مكان لائق بالبيت الذي يقيم فيه، وحظينا باستقبال القناصل الآخرين، فقد كان حلولنا بينهم مناسبة غير عادية لقلعة تردد الأوروبيين على طرابلس. اشعرنا الباشا أو باي البلد الذي حملنا له رسائل توصية من داي الجزائر، بأنه سوف يستقبلنا في الغد وهو 27 سبتمبر، فاصطحبنا لمقابلته قنصل فرنسا، وقد سبقتنا إشاعة توحى بأن هناك بعض الأشخاص يتجولون في البلاد لاستكشافها بحجة البحث عن النباتات، ولحسن الحظ، هذه الإشاعة لم تجد قبولا لدى الباي. وبعد أن قدمنا للباي رسائلنا لم يكتف بأخذ فكرة طيبة عنا، وإنما أكد أنه يرغب

بعد أن غادر هابنسترايت على ظهر سفينة جزيرة لامبيدوزا مبحرا نحو طرابلس، واجهتهم رياح شديدة، وأبطأت حركة السفينة، بحيث يقول إن تلك الرياح ظلت قوية «ولم يكن في استطاعتنا أن نبقي فوق السفينة سوى شرع واحد». يؤرخ هابنسترايت للحظة الوصول إلى ميناء طرابلس، ويعتبرها مدينة ذات أهمية تاريخية، زيادة على موقعها الاستراتيجي الكبير، كما أنها تشكل من حزام من المدن التاريخية المحيطة بها، والتي شكلت على مر التاريخ منارات حضارية، ولعبت أدوارا كبيرة في منطقة حوض البحر الأبيض المتوسط، يقول «وفي 26 سبتمبر أبصرنا مدينة طرابلس، وسررنا بدخول مينائها، وعند نزولنا من السفينة عرض علينا القنصل الإمبراطوري

أن يكون في بلاده ما هو جدير باهتمامنا، ووعد بحمايتنا أثناء سفرنا، فكان هذا الأمير بهذا السلوك أكثر حكام إيالات المغرب أدبا وكياسة، وقد تحدث معنا بدون الاستعانة بمترجم واستفسر عن مشاريعنا وطلب منا أن نمده بوصف عن بلادنا، وقد كانت لغته الإيطالية التي تحدثنا بها راقية جدا. كنت اعثر بطرابلس على بعض القطع المعدنية والعينات الأثرية بإجراء عمليات حفر، وقد تابعت سفري، فذهبت إلى «ليدة» ويون كاسان، القريب من موقع إيه القديمة، لكن الظروف لم تسمح لي والمرافقي بالتوغل أكثر في البلاد، فاندعام الماء وشدّة الحرارة غير المحتملة والجبال الرملية المتحركة التي رأينا نموذجا منها في هذه النواحي، كلها كانت السبب في

عدم قيامنا بذلك، فكان علينا في مثل هذا الوضع أن نكون ضمن قوافل تضم عددا كبيرا من المسافرين، مما يتوجب علينا انتظار الفرصة السانحة لمثل هذا السفر الذي ينظر إليه السكان هنا بأنه مهمة خطيرة، بل عمل متهور، ومع ذلك فإنه لم يكن ينقصني التصميم على القيام بهذه المغامرة، وإنما حال دون ذلك أن المجموعة التي ترافقتني لم تكن بالعهد الكافي الذي يمكننا من القيام بذلك. وكما سبق لي أن جيت تخوم بلاد المغرب أثناء هذه الرحلة، فسوف أعود إلى تونس حاملا تحسن الظروف بذلك، حيث بقي علي أخذ بعض الملاحظات، ومنها سوف أبدأ ما في وسعي للوصول إلى أحد موانئ المحيط الأطلسي للقيام برحلة إلى منطقة السنغال.